الإمام الخميني رجل القرن العشرين، ورجل القرن الحادي والعشرين

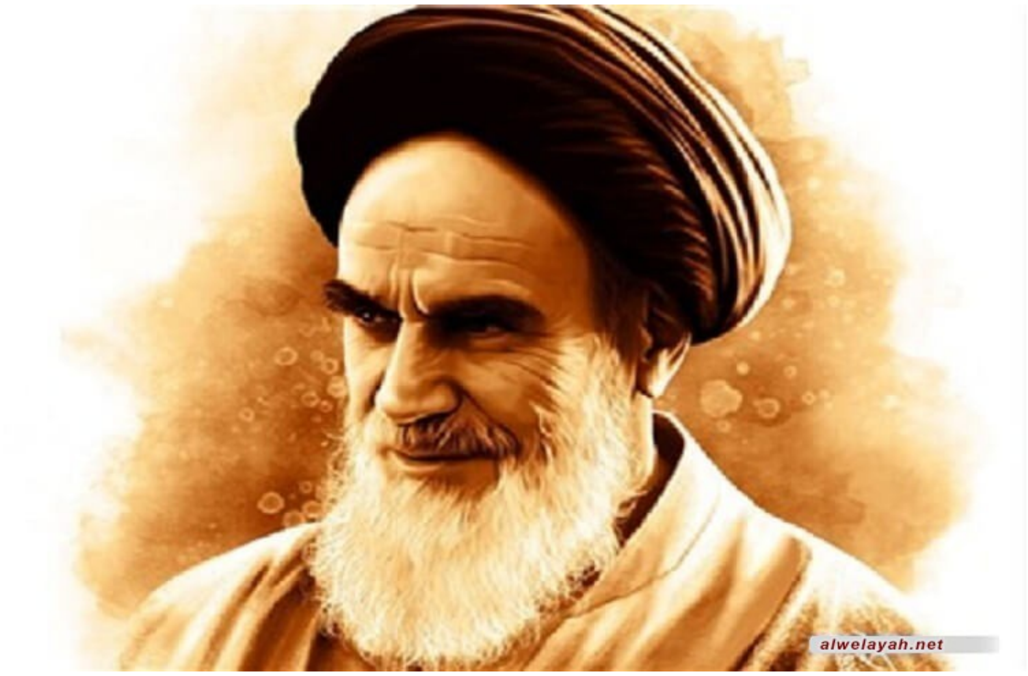

الإمام الخميني رجل القرن العشرين، ورجل القرن الحادي والعشرين

2007-08-22

عادل رؤوف

وعندما نقول: رجل القرن الحادي والعشرين؛ فإننا نحاول هنا أن نقرأ هذه المقولة عبر شقّين من الحديث عن حياة الإمام السياسية وما اتخذته من صبغة استراتيجية أو بالأحرى محتوى استراتيجي.

شق يتمثل بما أثبتته الأحداث من رؤى سياسية للإمام، وشق ثانٍ يتصل بما توقّعه الإمام لمستقبل المسيرة الإسلامية، سواء ما يتعلق منها بجانب الصراع مع القوى الكبرى, أو ما يتعلّق بمستقبل المنطقة الإسلامية ذاتها.

والمهم هو أن نقول أيضاً: إن الإمام سرّب هذه الرؤية عبر مجموعة من القرارات والمواقف التي تشكل فهماً ثورياً في العمل السياسي وإدارة الأمور السياسية مع قوى الكفر والاستغلال والهيمنة، وأن الهم المرجعي والهم الحوزوي وإعطاء الدروس وما تحتاجه الدراسة الفقهية من وقتٍ وتفرّغ لم تمنع الإمام من أن يواكب الحركة السياسية في إيران والمنطقة الإسلامية، والعالم برمّته؛ بل لعلّ الإمام يذهبُ إلى أبعدَ من حد الاهتمام في الأمور السياسية.. إنما هو يعتبرها الهدف الأساسي للإسلام كرسالةٍ في أبعادها الاجتماعية والكونية والإدارية.. وكنظام جاء به الرسول الأكرم(صلى ا عليه وآله وسلم) ومن بعده الإمام علي (عليه السلام) ومن هنا فإن الإمام الخميني أعطى المعنى الحقيقي لدور المرجع في استنطاق النص الفقهي، وتوظيف هذا النص في بناء هيكل الرسالة الإسلامية العام.

وقبل أن نبدأ رحلة الاستشراف ببعدها الفكري والسياسي الاستراتيجي، لابدّ من القول: إنّ َ هنالك العديد من الرموز العلمائية التي لعبت أدواراً سياسية مهمةً، إلا أنها لم تستطع أن تؤدي الدور الذي أدّاه الإمام, ولم تستطع أن تنقذ الإسلام من المؤامرات الكبرى التي حيكت إزاءه، كما لم تستطع أن تؤسس للإسلام الثوري السياسي الذي أصبح اليوم جزءاً من معادلة الصراع العالمي القائم.. وأخيراً فإنها لم تستطع أن تستشرف الأفق كما استشرفه الإمام، وحدد ملامحه في أكثر من تصريح ومناسبة ومكان، فبماذا إذاً؟ بماذا انفرد الإمام عن الآخرين في القيم السلوكية والتكوين والرؤية حتى استطاع أن ينجز ما أنجز، ويؤسس ما أسس من صروح للإسلام السياسي في هذا العالم؟

لاشك أن هذا السؤال هو بدرجة من الصعوبة، بحيث لا يمكن لأحد ببساطة أن يحيط بكامل الصفات التي كوّنت الإمام كظاهرة وخط, إلا أننا نحاول هنا أن نحدد بعض الجوانب المهمة التي ميّزت الإمام عن غيره.

أولاً: إذا تأمّلنا في ما قاله في يوم من الأيام، وذلك عندما اعتقلته قوات السافاك التابعة لنظام الشاه السابق، إذا تأمّلنا قول الإمام: (إنني لم أعرف معنى للخوف في حياتي) أدركنا أن هذا الرجل هو ليس كغيره من الرجال، فغالباً ما يكون الخوف سبباً مهماً من أسباب اللجوء إلى المساومة أو الانسحاب من ساحة الأحداث، أو التلكّؤ في المسيرة الثورية. وغالباً ما يُغلّف هذا الخوف بألف مبرر ومبرر من مبررات المصلحة العامة التي تنتهي فيما بعد إلى توقف المسيرة الثورية.

وقد كان الإمام الخميني يعي مخاطر هذا النقص النفسي لا سيما في الدائرة القيادية... لذا نراه في معظم دروسه ومحاضراته يُركّز عليه كمرضٍ وطرفٍ في معادلةٍ يتشكّل على طرفها الآخر الخوف من ا، فمن يخشى ا لا يخشى غيره.

ولعلّ الإمام يُبحرُ بمعاني ودرجات هذه الخشية من الله بالشكل الذي يعطيه صفة خاصة ويبلور لديه قدرةً داخليةً على قول الحق وملاحقته، وقدرة تصميم خارقةً على أداء مسؤوليته كإنسان أولاً، وكعالم دين ومرجع ثانياً. وبالتأكيد أن كل ذلك نابع من قوة روحية داخلية هائلة تجعله ينظر إلى المواجهة لا بموازين القوى المادية الظاهرة فقط، إنما بالموازين المادية والمعنوية الإلهية، وهذه الموازين المعنوية هي الحاسمة النهائية في تقرير شؤون الكون{إن الله لا يُغيّرُ ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم}[1].

ثانياً: إن الإمام ومن خلال معظم خطاباته وأقواله كان قد شخّص طبيعة المواجهة مع القوى الكبرى، فهذه القوى لا علاقة لها بالإسلام كدين فردي وعبادات وطقوس ومسائل فقهية تتعلق بالطهارة والسلوك الخاص، إنما هي عملت لقرون عديدة من أجل إزاحة الإسلام السياسي عن الحياة الإسلامية، تارةً بالحروب، وتارة أخرى بطرح بدائل(إسلامية) كالإسلام الشكلي، والإسلام الرسمي، الذي يُذكر في الأعياد والمناسبات، وتارة ثالثة بزرع تيارات فكرية وسياسية في المنطقة تُنظّر لفصل الدين عن السياسة، وتارة رابعة بإثارة النعرات الطائفية والعنصرية وترويج الطروحات القومية، كل ذلك بغية سلب الإسلام مضمونه الكوني والسياسي والإداري والحضاري وإبقائه كامناً في العبادات الفردية.

هذا العمل التاريخي الطاغوتي نجح في عزل الإسلام السياسي عن مسرح الحياة، وجرّد هذا الإسلام عن كياناته المركزية التي تمثّلت آخر أشكالها بالدولة العثمانية، كدولة مركزية للمسلمين، وبالتالي مزّق العالم الإسلامي إلى مجموعة أجزاء متناحرة، ووضع داخل كل جزء عدداً لا ينتهي من الأزمات المؤجّلة وربط عجلة اقتصاد هذه الدول والأجزاء بسياسة النهب الدولية المُنظّمة لثروات العالم الإسلامي.. نجح إذاً المخطط الدولي التاريخي حيال الإسلام، ليجد العالم الإسلامي نفسه فيما بعد مشلول الإرادة أمام قوة التغيّرات العالمية التي انتهت لغير صالح الإسلام، فمن يا تُرى قادرٌ على أن يشخّص المواجهة بهذه الخلفية، ويمتلك المقوّمات وما تحتاج إليه مسيرة الإنقاذ من جرأة وعناد ثوري؟

ثالثاً: شخّص الإمام هذه الخلفية ووضع على أساسها أولويات أهداف الحركة الثورية، كما سعى في الوقت ذاته إلى تحديد ملامح المنهج الحركي الثوري، والذي يقرأ سيرة الإمام الخميني يكاد لا يرى حديثاً من أحاديثه وقد أسقط عنه هذا المعنى المرتبط بعلاقة الدين بالسياسة.. ويكاد هذا المعنى يشكّل الركيزة الدائمة فيما يقول عن الإسلام، والدين، والثورة، والواقع، والغزو الفكري، والثقافات المستوردة.

إذاً سبقُ التشخيص والإصرار على إثارته خلال سبعين عاماً من حياة الإمام الخميني السياسية، هو من الأمور الحيوية والمصيرية التي انفرد بها هذا الرجل العملاق، إذ إنه في النهاية، استطاع أن يعطي

الإسلام مضمونه السياسي والحضاري، واستطاع أن يهزم جهود مئات من السنين التي بذلها الأعداء بغية تحقيق هدفهم المشؤوم.

لازال الإمام هو ذلك اللغز المحيّر الذي تدور كل دوائر الاستكبار العالمي لاستنطاق أسراره وكوامن قوّته الروحية والنفسية والوجدانية, التي استطاعت أن تتحدى النظام الدولي القديم، وأن تُربك كبار هذا العالم، وأن تعرقل قيام النظام الدولي الجديد.. إذ لازال هذا النظام لم يتشكّل حتى الآن، ويراد له أن يقوم على أنقاض تراث الإمام من الحركة الثورية السياسية للإسلام التي قادها هذا الراحل العظيم بعنفوان قلّ نظيره، وبتحد تحوّل فيما بعد إلى مدرسة ثورية في المقاومة، تجد مصاديقها الثورية في شتّى أرجاء العالم الإسلامي، بل وفي شتّى أرجاء المعمورة الباحثة عن حرية الإنسان المسحوقة بعجلة الظلم الدولي.

وعودة إلى ما قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران هي أكثر من ضرورية الآن لبلورة المنهج الثوري للإمام, والوقوف على المحطّات الاستشرافية التي أفرزها الإمام بحسّه السياسي الدقيق.

يقول الإمام: (تاريخ إيران ومنذ الحركة الدستورية لم تشهد أعضاء برلمان كهذا، إذ ينسبون الهجمة والوحشية لأبناء أذربيجان المؤمنين المحترمين، نعم إنّ برلماناً يُعدّ من قِبَل الشاه يجب أن لا يُتوقّع من أعضائه غير هذا. اليوم اجتمعت هتافات الجماهير في كافة الأزقة والطرق (الموت للشاه) وسوف لن يستطيع أي شخص أن يثني عزيمة الشعب للإطاحة بالشاه الذي هو بحق سبب كافة الجرائم والانتهاكات اللامشروعة)[2].

وفي هذا النص يبدو الإمام وكأنه يتجاوز حدود تقرير حقيقة النصر الإلهي، حتى وإن تحالفت هذه القوى، ومارست ما تستطيع ممارسته من بطشٍ وقتلٍ وإرهابٍ وحيل سياسية ماكرة. وبالإضافة إلى البعد الاستشرافي لذلك النص، فإنه يعبّر بوضوح عن بعض ملامح منهج الإمام السياسي، في العمل، والمسيرة الثورية، فالإمام كان يعي من الناحية السياسية أهداف كل الأساليب الداخلية والخارجية التي يُراد لها أن تحول دون تحقيق النصر، ففي محاولات متكررة وعديدة للهروب من استحقاق الهزيمة أمام المدّ الثوري الإسلامي كان النظام الإيراني السابق والبائد قد لجأ إلى تحريك ورقة البرلمان في البت في الأحداث الداخلية؛ بغية إعطاء قراراته طابعاً دستورياً وقانونياً، ولم يألُ الإمام جهداً في كشف ألاعيب النظام، ووضع النقاط على الحروف، وتحليل خطواته ساعةً بساعة ويوماً بيوم.. أي : إن الإمام كان يخوض تفاصيل المعركة السياسية بعقل تحليلي بارع مدرك لأساليب العدو، ويضع من خلال خطاباته وبياناته الثورية، الخطوط العريضة لحركة الثورة وبما يُحبط أساليب الأعداء، ويحول دون تحقيق

مؤامراتهم، ويصون الثورة من الانحراف عن خطّها الإسلامي.

وعلى صعيد الأساليب العدوة لم يقاوم الإمام لعبة البرلمان، إنما لاحق المكر الشاهنشاهي بكل أشكاله، وبما يُعجّل تحقيق الانتصار الثوري، ففي الوقت الذي سعى فيه نظام الشاه إلى الإطاحة بالثورة عبر سياسة شقّ القوى الثورية، ومدّ يده إلى التفاوض مع بعض القوى المساومة فقد وقف الإمام لهذه المحاولة الجديدة بالمرصاد رافضاً أي شكل من أشكال التفاوض، وعازماً على مواصلة المسيرة الثورية دون أن يقع ضحية الخوف أو الإغراء. فردّ على الدعوات التي انطلقت بضرورة التفاوض مع الشاه فقال الإمام: (إن أمة الإسلام وأمة إيران لم ولن تتفاوض مع هذا الرجل مطلقاً، كل من ينادي بالمفاوضة هو خائن وعميل، وإن ما نادت به بعض الأحزاب فيما يتعلق بتطبيق الدستور ما هو في الحقيقة إلا دعوة لتثبيت أقدام الشاه وهذه هي الخيانة بحد ذاتها، يجب على دعاة تطبيق الدستور أن يعيدوا النظر بقوانينه التي فرضت بحد السلاح والقوة، وكما قال أحد كبار السياسيين: إن الإيرانيين أمام طريقين اثنين: إما الحرية وإما الشاه، ولكن الشعب سوف يختار الحرية, وسوف يطيح بالشاه بعون ا).

هذه الـ(لا) الخمينية القوية لمقولات(الإصلاح) ولتفعيل البرلمان ولدعوات التفاوض، ولعشرات الحيل التي لجأ إليها الشاه في أيامه الأخيرة، هي (لا) نابعة من وعي سياسي كبير بما يحاك للثورة من مؤامرات.. إنها (لا) تُعبّر عن شكلين من أشكال العقلية الثورية..

وهما: العقلية الثورية المرحلية، والعقلية الثورية الاستراتيجية، ففي الأولى ـ أي المرحلية ـ غالباً ما تنتهي قيادة أي حركة ثورية إلى نكسات على المدى البعيد، حتى وإن حققت امتيازاً مرحلياً ومؤقتاً، وحتى وإن حصلت على بعض المكاسب الشكلية، فهذه الامتيازات والمكاسب سرعان ما يُطاح بها عندما يخف الزخم الثوري وتُفكّك مفاصل الثورة، ويجري استيعاب الفعل الثوري عبر أساليب إغرائية متعددة، وعندها يكون الخصم قد انتصر على أساس من سياسة المكر والخديعة والإطاحة بالأطر، وما أكثر الحركات والحالات الثورية تاريخياً وآنياً التي راحت ضحية هذه السياسة وسقطت في مطبّات الأهداف المرحلية.

وفي مقابل هذا المكر السياسي الساعي إلى إسقاط الثورات في مطبّ الأهداف المرحلية مما يغيّر طريقها، ويبدّد زخم الثورة، هنالك العقلية الثورية الاستراتيجية التي تحسب شروط مرحلة الثورة بدقةٍ، وتسعى من خلال ممارستها الثورية إلى تحديد ثوابت وملامح المنهج الثوري الأصيل الذي لا يسقط في فخ المرحلية، إنما هو يستوعبها ويؤسس عليها أهدافه الثورية البعيدة، هكذا مارس الإمام الخميني مسؤولياته الثورية، مارسها في إطار الوعي والتحليل الدقيق للأهداف والطروحات التي يواجه بها الخصم

المد الثوري، فهو عندما يرفض التفاوض مع نظام الشاه، فلأن هذا التفاوض جاء في غير مرحلته كشعار، وجاء في غير زمنه بما يعبّر عنه من نوايا، وبالتالي فإن الانجرار وراءه، يعني انجراراً وراء أهداف عدوةٍ صمّمت ورسمت مساره وتسعى إلى تسويقه من أجل الإطاحة بحركة الثورة الإسلامية.

إن المرور ولو سريعاً على أحداث ما قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران يساعد كثيراً على إدراك رؤية الإمام، وقدراته التحليلية، وتشخيصاته الفكرية والسياسية، وتلك هي مفردات ما نسعى إليه تسليط الضوء عليه.. مفردات لعنوان الاستشراف الكبير، أو لعنوان الأفق الاستراتيجي الذي يطبع حركة الإمام الثورية في محاور العمل الأساسية أو في التفصيلات.

ولنسق هذا النموذج في التشخيص لبعض التيارات اليسارية والشيوعية في إيران والمنطقة، ليتضح كيف أنّ الإمام كشف عما يسمّى بالشيوعية الأميركية أو تكتلات اليسار الأميركي، يقول الإمام: (نرى أن الشاه يحاول تبرئة نفسه مما ارتكب من مجازر وجرائم طيلة سلطنته وهيمنته، ويحمّل مسؤولية كل ذلك للمسؤولين وكبار رجال الدولة ودليل ذلك محاولته تمييز بعض عناصره وأعوانه، إنه يخادع ويراوغ بتغيير وسائل الإجرام وآلاته متغافلاً عن مصدر الإجرام وأساسه).

ويضيف الإمام: (فالأمة الواعية سوف لن تُخدع بأساليبه هذه, وسوف لن ننسى المجرم الأول, فتارة يصف لنا معارضيه بأنهم أشخاص يريدون تقسيم البلاد أو تسليط الاستعمار عليها.. وتارة يهدّد الشعب بخطر الشيوعية).

ويحاول الإمام أن يوضّح ماهية الشيوعية الإيرانية بالقول: (ولعلّ البعض من السذّج خُدعوا بأحابيله، وتناسوا أن الاشتراكية والشيوعية ما وُجدت في إيران إلا عن طريق الأميركيين أنفسهم، وكما أوجدت بريطانيا حزب تودة الشيوعي، وقد زعم الخبراء والمتخصصون أن جلّ المتحمّسين للفكر الشيوعي في المنطقة هم من زعماء أميركا، أولئك يسعون لمحاربة النهضات الوطنية والدينية عبر الاشتراكية، تلك التي شهدنا تجربتها تاريخياً في السنين الأخيرة والشيوعية في الواقع خير شاهد على ذلك)[3].. هكذا كان الإمام الخميني يفصل ماهية التيارات الفكرية وحقيقتها عن الاسم والعنوان، ليكشف بذلك عن ألاعيب القوى الكبرى وأساليبها في إحباط الشعوب.

---

*من كتاب (الإمام الخميني قراءة في مقومات مشروعه الثوري الإسلامي)

[1] سورة الرعد، الآية:11.

[2] في بيان للإمام الخميني في العام 1977م.

[3] في بيان للإمام أصدره في 10 حزيران 1978م.